استحكامات الأمير عبد القادر العسكرية

أ. عبد القادر دحدوح
جامعة منتوري – قسنطينة

لقـــد كان للمقاومة الجزائرية بقيادة الأمير عبدالقادر أثرها الكبير في تعطيل والهـــاك قوات الاحتلال الفرنسي طيلة سبعة عشر سنة، بداية من سنة 1882 إلى غاية ســـنة 1847م، وقد نهج الأمير في مقاومته هذه خطة عسكرية جد استراتيجية، تهدف في مجمـــلها إلى إخـــراج الاســـتعمار الفرنسي من كامل التراب الوطني، وإقامة دولة جزائرية واحدة وموحدة، وكانت استراتيجيته مبنية على ثلاثة تدابير أساسية:

أولا: إقامـــة جيش نظامي يكون تحت سلطته وطوع إرادته كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

ثانيا: توفير الأسلحة وإنشاء مصانع لإنتاجها.

ثالثا: بناء استحكامات عسكرية.

ويقصـــد بالاستحكامات العسكرية تلك التحصينات التي تقام لحماية المدن والـــثغور والطرق التجارية وغيرها من المواقع التي يحتمل إن يمر من خلالها العدو إلى داخل المدينة أو البلد. وهي تشمل القلاع والحصون والأبراج والأسوار وما تحتويه من عناصر كالمزاغل والسقاطات والشرافات والفتحات وغيرها.

وقد بنى الأمير عبد القادر خمس قلاع يتمركز جلها في الغرب الجزائري، هي قلعة سبدو جنوب تلمسان وقلعة سعيدة وقلعة تاقدمت وقلعة تازة وأخيرا قلعة بوغار جنوب المدية (انظر الخريطة رقم1). ولقد كان وراء إنشائها واختيار مواقعها مجموعة من الظروف والعوامل منها العسكرية والاقتصادية وغيرها.

1- عوامل بناء القلاع:

كانت مقاومة الأمير في بادئ الأمر تسير وفق خطين دفاعيين الأول على الشريط الساحلي والثاني في التل، فالخط الأول كان مشكل من مجموعة من القبائل الموالية جعل الأمير من مقاتليها حراسا، ووسيلة ضغط اقتصادي على الحاميات الفرنسية في المناطق الساحلية المحتلة، ومن بين تلك القبائل الغرابة في وهران، والحاجوت في ضواحي الجزائر([1]). وأما الخط الثاني فهو مشكل من مدن تمثلت في تلمسان ومعسكر ومليانة والمدية، واتخذ الأمير كل واحدة من هذه المدن مركزا لولاية، وعين على رأسها خليفة وانشأ فيها المصانع، وقصدها السكان من كل النواحي([2]).

ولما تبين للأمير أن المدن السالفة الذكر كانت سهلة المنال من طرف الاستعمار الفرنسي ويصعب الدفاع عنها، فكر في ضرورة إنشاء مراكز متوغلة في الصحراء بحيث يصعب على الاستعمار الوصول إليها لصعوبة مسالكها، ويسهل الدفاع عنها لوجودها في أماكن محصنة تحصينا طبيعيا، كما فكر في ضرورة تحطيم المدن التلية حتى لا يتخذها الاستعمار سلما يرتقي به إلى المراكز الجديدة([3]).

و لم يكن هذا العامل العسكري الوحيد الذي دفع بالأمير إلى بناء القلاع، وإنما كانت هناك عوامل أخرى منها العامل السياسي، حيث أراد بتلك القلاع أن يبسط

---

[1] مصطفى ضلاس ، فارس الجزائر الأمير عبد القادر، دمشق، 1980، ص 140.

[2] اسماعيل العربي ، الأمير عبد القادر الجزائري مؤسس دولة وقائد جيش، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 1984، ص51 -52. انظر أيضا : أديب حرب ، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1883، ج 1، ص229-230.

[3] شارل هنري شرشل ، حياة الأمير عبد القادر، ترجمه وقدم له وعلق عليه أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 135-136.

انظر أيضا: الجيلالي صاري ، «دور البيئة الطبيعية في استراتيجية الأمير عبد القادر» ،مجلة الثقافة ، العدد75، 1983، ص 104.

B. Benssaih, *De l'Emir Abdelkader à l'imam Chamyl*. Alger. Editions Dahlab, 1997, p.83.

سيطرته على القبائل، حيث جعل تاقدمت شوكة في أعين القبائل المتنقلة بالصحراء التي كانت تتهرب منه، وتقلق راحته، ولما بنى قلعته هذه بادرت تلك القبائل بالخضوع وكان بإمكانه انطلاقا من هذه القلعة أن ينقض عليها بسهولة، وان يصادر قطعانها ويقتلع خيامها([1]).

ولنفس الأسباب بنى قلعة بوغار، حيث كان يريد من خلالها أن يسيطر على قبائل المفاتحة وأولاد مختار وأولاد عنتر والزناخرة، التي امتنعت عن أداء المساعدات المالية، وسيطرت على معظم قبائل جنوب التيطري، وكادت أن تستولي على المدية([2])، ونفس الشيء بالنسبة لقلعة سعيدة، حيث بناها الأمير ليسيطر ويمسك بزمام قبائل اليعقوبية([3]).

ومن عوامل بناء القلاع أيضا العامل الاقتصادي والتجاري، حيث كانت قلعة تاقدمت مركز عبور وهمزة وصل للتجارة بين التل والصحراء، ولأهميتها التجارية قصدها الناس والتجار لما تمنحهم من فرص كبيرة للربح([4]).

وقد كانت بوغار أيضا مركزا تجاريا هاما، ومحطة انتقال بين الجزائر والمدية وبين الجلفة والأغواط ومراكز الصحراء الأخرى، وحلقة وسطى ورئيسية في الحزام الطبيعي الفاصل بين مناطق التل الزراعية في الشمال والسهول العليا الرعوية في الجنوب([5]).

ويضاف إلى العوامل السابقة أن الأمير عبد القادر كان يريد أن ينشئ شبكة من المدن الدائمة ليخلد اسمه بها كما كان يفعل الأمراء والحكام، ويظهر ذلك جليا في

---

[1] شرشل، المصدر السابق، ص136.

[2] محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1964، ص288-289. انظر أيضا: شرشل، المصدر السابق، ص127-128.

[3] R. F de Pillissier, *Annales Algériennes*, Paris, Librairie militaire, 1854, vol. 2, p. 479.

[4] بسام العسلي ، الأمير عبد القادر الجزائري، دار النفائس، بيروت، 1986، ص49.

[5] سعيد بن زرفة ، قصر البخاري مدينة الشمس، دار السلام، الجزائر، 2001، ص13.

النص الذي أمر بكتابته في لوحة فوق باب تازة حيث يقول فيه: أن الله يشهد لي أن هذا العمل عملي محفوظا في مذكرة الخلق كل من يقربون مني ويقبلون على أراضينا السعيدة للأمن والطمأنينة يجدون بعدي والى الأبد أسوة في خدماتي وأعمالي الصالحة([1]).

2- أسباب اختيار مواقع القلاع:

لقد كان للظروف العسكرية والسياسية التي عاشها الأمير دور بالغٌ في تحديد مواقع القلاع، فقد جاءت معظمها في مناطق جبلية مرتفعة، ووعرة المسالك وفي نفس الوقت تتوفر على المياه، والأراضي الخصبة الصالحة للزراعة، ومناخ معتدل. حيث بنيت قلعة تاقدمت على هضبة ترتفع بـ 850م فوق مستوى سطح البحر، في سفح جبل جزول، يحدها من الشمال بلدية قرطوفة، ومن الجنوب بلدية ملاكو ومن الشرق تيارت التي تبعد عنها بـ8 كلم.

كما بنيت تازة على إحدى هضبات جبل الشاون، الذي يبلغ ارتفاعه على مستوى سطح البحر بـ1804م([2])، وهي تقع شرق مقر ولاية تيسمسيلت، حيث تبعد عنها بـ84كلم، ويحدها حاليا من الشمال بلدية طارق بن زياد، ومن الجنوب بلدية البواعيش ومن الشرق بلدية دراق، ومن الغرب ثنية الحد.

وكذلك بنيت قلعة سعيدة على منحدر من جبال سعيدة التي تبلغ أعلى قمة بها حوالي1288م([3]) وهي تقع جنوب تلمسان بـ74كلم، وشمال البيض بـ198كلم، وغرب تيارت بـ174كلم، وشرق سيدي بلعباس بـ97كلم.

---

[1] أندري برنيان وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة رابح اسطنبولي وآخرون، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص264.

[2] E. Ficheur, « La crétacé inférieur dans le massif des Matmata», in *Bulletin de la société géologique de France*, XXVIII, Paris, 1900, p.560.

[3] N. Nidjadi, *Colonisation et guerre d'Algérie dans la région de Saida*, Saida, Les belles impressions, 1995, p. 28.

أمـــا قلعة سبدو فإنها محاطة بسلسلتين جبليتين شبه متوازيتين تبلغ أعلى قمة بهمـــا 1177م، وهي تحتل منخفضا يصل ارتفاعه إلى 981 م؛ تحدها من الشمال بلدية تـــرني، ومن الجنوب بلدية العريشة التابعة لولاية بشار، ومن الشرق بلدية عور، ومن الغرب بلدية العزاية.

قلعـــة بوغار هي الأخرى بنيت فوق هضبة ترتفع فوق مستوى سطح البحر بـــــ1112م، ضمن سلسلة من الجبـــال يتراوح ارتفـــاعهـــــا بين 600و1300م، وهي تبعد عن المدية بحوالي 70كلم، وعن مدينة قصر البخاري بـــ 7كلم.

وكمـــا تشابهت قلاع الأمير من حيث وعورة وارتفاع مواقعها فإنها تتشابه أيضا في المناخ البارد شتاءا والحار صيفا، تتراوح كميات تساقط الأمطار بين350و500 ملم سنويا، و الحرارة بين 0 درجة و47 درجة([1]).

كمـــا بنيت تلك القلاع في أماكن تتوفر على مصادر المياه، حيث بنيت قلعة تاقدمت على ضفاف واد مينة، وقلعة سعيدة على ضفاف واد سعيدة، أما تازة وسبدو وبوغار فتتوفر فيها العيون والمنابع المائية.

وبصـــفة عامـــة فان مواقع القلاع كانت مواقع استراتيجية وهامة عسكريا واقتصاديا واجتماعيا، وهي تتوفر على كل الشروط اللازمة لإقامة قلاع أو مدن بها، تلك الشروط التي تضمن الأمن والاستقرار من جهة، وتضمن العيش الطيب من وفرة المياه، ونقاوة الهواء، وتربة صالحة من جهة أخرى.

---

[1] حول المناخ انظر :

Commune de Tagdemt, *Rapport final*, 1994.

Agence Nationale pour l'aménagement de Bordj El-Emir Abdelkader, p. 2-3.

Ministère du Tourisme, *Schéma directeur d'aménagement touristique des willaya du sud, wilaya de Saida*, phase:1, Algérie, 1982, p. 9,7, 39.

- تقرير محطة الأرصاد الجوية لتلمسان للفترة 1982-1985.

- بن زرقة سعيد، المرجع السابق ، ص105.

3- تاريخ تأسيس القلاع:

تعتبر قلعة تاقدمت أول قلعة بناها الأمير، فقد كانت بداية الأشغال بها خلال شهر محرم 1252هـ/ماي 1836 حسب شرشل([1])، ومع نهاية شهر جمادى الأولى 1252هـ/سبتمبر 1836 حسب دي فرانس([2])، ويبدو أن التاريخ الأخير هو الأنسب، لكون دي فرانس كان حاضرا أثناء بداية الأشغال.

ولم تتم أشغال البناء إلا في سنة 1255هـ/1839، حيث يشير دوماس في رسالة مؤرخة بيوم 9ديسمبر 1838 إلى أن أعمال البناء مازالت جارية، وفي رسالة أخرى بتاريخ 17 افريل1839 يقول بأنه يتم نقل القرميد من معسكر إلى تاقدمت([3]).

ولقد اتخذ الأمير من هذه القلعة عاصمة لدولته، ونقل إليها أهله وخاصته وقصدها الناس من كل مكان، ومن مختلف الأجناس عرب وأندلسيون وكراغلة([4]).

وبعد تاقدمت بنى الأمير قلعة تازة التي وضع أسسها الأولى مع بداية شهر ماي 1838حسب دوماس (Daumas)([5])، لكن هناك مصادر ومراجع أخرى ترى بان تاريخ بداية البناء كانت في شهر جوان 1838م([6]).

ومن المحتمل جدا ان يكون التاريخ الذي حدده دوماس (Daumas) لبناء القلعة أي ماي 1838 صحيحا خاصة، وانه يؤكد لنا في رسالة مؤرخة بـ20 ماي 1838 بان الأمير قد اسكن مهاجري الجزائر العاصمة والبليدة في قلعة تازة([7]).

---

[1] شرشل، المصدر السابق، ص137.

[2] نقلا عن رشيد بورويبة، «تاقدمت عاصمة الأمير عبد القادر»، مجلة الثقافة، العدد82، 1984، ص 99. انظر أيضا:

E. Alby, *Histoire des prisonniers français en Afrique depuis la conquête*, vol., Paris, 1847, p.158.

[3] G. Yver, *Correspondances du capitaine Daumas, consul à Mascara*, 1837-1839, Alger, 1912, p.424.

[4] محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص313.

[5] G. Yver, *op. cit.* p.191-192.

[6] أديب حرب، المرجع السابق، ج2، ص26.

[7] G. Yver, *op. cit.*, p.197.

ومهمـــا يكن فان قلعة تازة تكون قد بنيت في سنة 1838 ويشهد على ذلك اللوحـــة الـــتي تحمـــل تاريخ 1255هـــ/1838م، والتي أمر الأمير بتثبيتها فوق باب القلعة([1])، ولقد اشرف على بنائها الخليفة بن علال والسيد قدور بن رويلة([2]).

وبعد تازة أمر الأمير ببناء قلعة سعيدة، وقد كانت بداية انطلاق الأشغال بها في شـــهر جانفي سنة 1839([3])، ولم تكتمل إلا في شهر أكتوبر من نفس السنة ([4])، حيـــث يذكـــر دومـــاس (Daumas)بأن الخليفة مصطفى بن التهامي والقائد الحاج بوكـــاري قـــد خرجا يوم 17جانفي 1839 لتحديد موضع مدينة جديدة أمر الأمير بتشييدها في سعيدة([5]).

وفي رســـالة مؤرخة بـــ31 مارس 1839 يذكر دوماس بأن الأشغال مازالت متواصـــلة بسعيدة، وكان المشرف عليها ابن التهامي، ولما استبطأ الأمير تلك الأشغال بعث في يوم 15جوان 1839 قائد معسكر الحاج بوكاري ليأمر بضرورة تعجيل البناء، كما زارها الأمير بنفسه في يوم 15اوت 1839 ليتفقد أحوالها([6]).

وتعـــد قلعة سبدو رابع قلعة بناها الأمير، وكان ذلك في شهر جوان 1839، حيث أعطى أمرا ببنائها إلى خليفته بوحميدي([7]).

وتعتـــبر قلعة بوغار آخر قلعة بناها الأمير، كان ذلك في شهر جويلية 1839 حسب الأستاذ احمد توفيق المدني([8])، وفي شهر أوت من نفس السنة حسب لتميريت Emerit([1])، وقد كان يشرف عليها خليفة الأمير محمد البركاني.

---

[1] Pellissier, *op. cit.*, p. 468.

[2] انظـــر: F. Patorni, *L'émir el-Hadge Abdelkader, règlement militaire avec appendice*, Alger, 1889, p.67.

[3] G. Yver, *op. cit.*, p..407.

[4] Ministère de la Guerre. *Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie*, Paris, 1839, p.313

[5] G. Yver, *op. cit.*, p.407. (

[6] *Ibid*, p.444,490,524.

[7] *Ibid*, p.486-487.

[8] احمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ط2، ص 231.

4-تاريخ تحطيم القلاع:

لما تولى الجنرال بيجو القيادة العامة للجزائر فانه عزم على تحطيم قلاع الأمير والسيطرة على مدنه، ووضع برنامجا خاصا بعمليته هذه، حيث أرسل في يوم 27ربيع الأول 1257هـ/ 18ماي 1841 قوة من الجيش بلغ عدد أفرادها أكثر من عشرين ألف، وانطلقت الحملة من مستغانم واتجهت نحو تاقدمت، ولما علم الأمير بخبرها أمر أهل عاصمته بالجلاء منها وحرقها، ووصلت قوات الاحتلال إلى القلعة بدون مقاومة، ماعدا بعض الطلقات النارية التي واجهتهم بها مفرزة من فرسان الأمير، التي كانت متمركزة وراء الصخور جنوب تاقدمت.

وبعد وصول بيجو إلى القلعة يوم 04 ربيع الثاني 1257هـ/25ماي 1841 وجدها قد خربت وأحرقت فزاد في تحطيم ما بقي منها ماعدا المسجد الذي احترمت حرمته، ولم يلبث فيها إلا يوما واحدا وغادرها يوم 05ربيع الثاني 1257هـ/ 26ماي 1841[2].

وفي نفس الوقت الذي احتلت فيه تاقدمت كان بيجو(Bugeaud)قد أرسل كتيبة أخرى مؤلفة من تسعة آلاف جندي، إلى بوغار وتازة بقيادة الجنرال براغواي ديلي(Baraguey Dhilliers)، ولقد كانت انطلاقة هذه الحملة من البليدة يوم 27ربيع الأول 1257هـ/18ماي 1841 ووصلت إلى المدية يوم 28ربيع الأول 1257هـ/19 ماي 1841، وفي اليوم الموالي تابعت طريقها إلى قلعة بوغار، حيث وصلتها يوم 02 ربيع الثاني 1257هـ/23ماي 1841 ووجدتها خالية من السكان بعد أن هجرها أهلها وأضرموا فيها النيران[3].

---

[1] M. Emerit, *L'Algérie à l'époque d'Abdelkader*, Paris, S.D, p.288.

[2] الحاج مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تحقيق وتعليق يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ص147. انظر أيضا: A. Belkhodja, *Tiaret, mémoire d'une ville* Alger, Houma, 1998, p.17-18.

[3] Pellissier, *op. cit.*, p. 466-467.

وبعـــد تحطيم قلعة بوغار اتجه الجنرال باراغواي ديلي في يوم 03 ربيع الثاني 1257هـــ/ 24 ماي 1841 إلى تازة، وكان وصوله إليها يوم 04 ربيع الثاني 1257هـــ/ 25مـــاي 1841، وقـــد وجدهـــا خاوية على عروشها وزاد في تحطيم ما بقي بها من منشات([1]).

وواصل الجنرال بيجو حملته ضد قلاع الأمير حيث أرسل الجنرال لاموريسير في 04 رمضـــان 1257هـــ/19 أكـــتوبر1841 إلى قلعـــة سعيدة ورغم تصدي بن التهامي([2]) ومحاولة منه إجباره على العودة إلا انه واصل طريقه إلى أن وصل إلى القلعة يوم07 رمضان 1257هـــ/22 أكتوبر 1841 حيث وجد الأمير قد احرقها واخرج منها أهلها([3]).

ومـــع نهايـــة سنة 1257هـــ/1842 بدأ بيجو حملته على تلمسان وتمكن من احتلالها، ومنها اتجه إلى قلعة سبدو حيث وصلها يوم 28ذو الحجة 1257هـــ/9 فيفري 1842، وقد وجدها مخربة وخالية من السكان([4]).

---

[1] هناك اختلاف حول تاريخ احتلال تازة: فمنهم من يقول يوم 24 ماي ومنهم من يقول يوم 25 والبعض الآخر يقولون يوم 26 ماي، انظر:

الكلونـــيل ايسكوت ، مذكرات الكلونيل اسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر عام 1841م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص102.

P. Azan, *L'émir Abdelkader (1808-1883) du fanatisme musulman au patriotisme chrétien*, Paris, 1925, p.171.

C. Rousset, *La conquête de l'Algérie 1841-1857*, Paris, 1889, vol. 1, p.390.

P. Christian; *L'Afrique Française l'empire du Maroc et les déserts de Sahara*, Paris, 1846, p.390.

[2] ابن التهامي مصطفى:صهر الأمير عبد القادر وابن عمه عينه خليفة على المقاطعة الشرقية.

[3] أديـــب حرب ، المرجع السابق، ج2، ص405-406. وهناك من يقول بان احتلال سعيدة تم في يوم 19 أكتوبر .انظر:

Emerit, *op. cit.*, p.173.

Ch. A. Julien; *Histoire de L'Algérie contemporaine, conquête et colonisation (1827-1871)*, Paris, 1964, p.478.

[4] أديب حرب ، المرجع السابق، ج 2، ص 414.

ورغـــم سقوط وتحطيم هذه القلاع إلا إن ذلك لم يثن من عزيمة الأمير عبد القادر و استمر في مقاومته للعدو قرابة ست سنوات، كما استمرت روح المقاومة بعد ذلك في نفوس أبناء هذا الوطن المخلصين، إلى إن تمكنوا من استرداد حرية هذا الوطن.